القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

ارم ذات العماد

٤

عبد الحميد جودة السحار

١

بعد انتهاءِ الطُّوفان ، ونُزولِ نوحٍ ومن معه من السفينة ، أخذَ هؤلاء المؤمنون الذين نَجَوْا معه يتزاوجون ويأْتُونَ بأولادٍ وبنات ، حتى كَثُرَ الناس ، وعَمِرَت الأرض ، ونبتتِ الزروع ، وتَكاثَر الحيوانُ والطيْر ، وعادت الدنيا كما كانت قبلَ الطوفان .

ولما كثُر الناسُ تفرقوا فى الأرض ، وسكَنتْ كل قبيلةٍ فى ناحية منها ، ومَلكتْها وعمَّرتها ؛ ومن هذه القبائلِ الكثيرة ، كانت هناك قبيلةٌ تسمَّى « عاد » تسكُنُ فى جنوبِ بلادِ اليمن ، بالقربِ من البحرِ ، فى وادٍ تُحيطُ به المُرتفِعاتُ الرملية .

وكانت الأمطارُ كثيرةً فى هذا الوادِى ، لِقُرْبِهِ من البحر ، كما كانت العيونُ تَتفجَّرُ فى أرضِه ، وتسِيلُ

مياهها . ولذلك كثُرَت فيه المزارعُ والحقول ، والحدائق والمراعى ، وتكاثرَ الحيوانُ والطير . وصارتْ هذه الجهة كأنها قطعة من الجنة .

وقد بنى أهلها مدينةً جميلةً كانتْ أحسنَ مدينةٍ فى الدنيا فى هذا الوقت ؛ فقد كانت بيوتُها مرفوعةً على أعمِدةٍ ضخمة ، وطرقاتُها فسيحة ، ومُزَيَّنةً بالحدائقِ والمُتَنزَّهات ، وكانوا يسمونها : إرَمَ ذاتَ العِماد ، التى لم يُخْلَق مثلُها فى البلاد .

وكان هؤلاء الناسُ ضخامًا عمالِقة ، أقوياءَ الأجسام ، أشدَّاءَ جبَّارين ، فبَنُوا الحصونَ والقلاع ، وأسَّسُوا مصانِعَ لنحتِ الأحجار ، وعملِ الأسلحة وغيرها ، وطَغَوْا وتكبَّروا لأنهم أقوياء ، لا يغلبهم أحد .

وكانوا يُقيمون علاماتٍ للمرور فى الصحراء

المحيطةِ ببلادِهم ، ولكنها كانت علاماتٍ كاذبة ، ليس غَرَضهُم منها إرشادَ الناسِ المارّين إلى الطرقِ المأمونة ، بل كان غرضُهُم تضليلَ الناس ، والضَّحِك عليهم ، ليَتيهوا فى الصحراء ، ولا يعرِفُوا الطريق .

وكذلك كانوا يخرجون لضربِ الناس ، والإغارةِ عليهم ، بوحشيةٍ وقَسْوَةٍ فظيعة ، ولا يرحمون أحدا ، ولا يُشْفِقون عليه .

ثم نَحتوا الأحجار ، وجعلوها أصناما ، وقالوا : إنها آلِهة : كما كان الكفارُ من قوم نوحٍ يصنعون ، قبل أن يُغرِقَهم الطوفان .

لذلك أرسلَ اللّه إليهم سيدَنا هودا ، وهو واحدٌ منهم ، لينْهاهُم عن عبادةِ الأصنام ، ويرشدهم إلى عبادة اللّه ، وينْصَحَهم بأن يتركوا القَسوةَ والوحشية ، ويكونوا رُحَماءَ بالناس ، فلا يؤذُوهم ،

ولا يُقيموا العلاماتِ الكاذبةَ فى الطريق ، لتضليل المسافرين والضَّحكِ عليهم ، والسُّخرية منهم ، أو قتلهم وسلب ما معهم .

٢

ذهب هود إلى قومِه ، فقال لهم :

ـ يا قَوْمِ إنِّى لكم رسولٌ أمين ، فاتَّقُوا اللّه وأطيعون ، وما أسأَلُكم عليهِ من أجْرٍ إنْ أجْرِىَ إلا على ربِّ العالَمين .

قالوا :

ـ وما الذى تُريده منّا يا هود ؟

قال : يا قَوْمِ اعبُدوا اللّه ما لَكم من إلهٍ غيرُه ، أفلا تَتَّقون ؟

قالوا : أجِئْتَنا لِنَعْبُدَ اللّه وَحْدَه ، وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ

آباؤنا ؟

قال : يا قَوم ، إنَّ اللّه هو الذى خَلَقَكم ، وأعطاكم هذهِ الأرضَ بعدَ أن أهْلَكَ قَومَ نوح ، وجعَلَكم أقْوياءَ الأجسام ، وأمَدَّكم بما تعْلَمون ، أمَدَّكم بأنعامٍ وبنين ، وجناتٍ وعيون .

قالوا : يا هود : ألَسْتَ رجُلا منا ؟ فلماذا اختارَكَ اللّه علينا ؟

قال : وهل تعجَبُون لأنَّ اللّه أرسَلَ إليكم واحدًا منكم ، ليُرشِدَكم ويُعَلِّمَكُم ، حتى تتركوا الأعمالَ الرديئَةَ التى تعمَلونها ، ولا تؤذوا الناس ، ولا تضربُوهُم ، ولا تُقيموا العلاماتِ الكاذبةَ لِيَضِلُّوا ، وأنتم تضحَكون منهم وتسْخَرون ؟

قال الملأُ الذينَ كفروا من قومِه : إنّا لَنَراكَ فى سَفاهة ، وإنّا لَنَظُنُّكَ من الكاذبين .

قال : يا قَومِ ليسَ بى سَفاهَة ، ولكنِّى رسولٌ من ربِّ العالَمين ، أُبَلِّغُكُم رِسالاتِ ربِّى ، وأنا لكم ناصحٌ أمين .

قالوا : يا هودُ ما جِئْتَنا ببَيِّنَة ، وما نحن بتارِكى آلِهَتِنا عَنْ قَولِك ، وما نحنُ لك بمؤمنين . إنْ نقولُ إلا اعتراكَ بعضُ آلِهَتِنا بسوء ، ولذلك فأنت مُغْتاظٌ من آلهتِنا ، لأنها أساءت إليك وآذَتْك ، فتريد منا أن نترك عبادتها ، ونَعبُد إلَهك .

قال : إنى أُشهِد اللّه أننى صادق ، وآلهتُكم لا تستطيع أن تضُرَّ أو تنْفَع ، وأنا برىءٌ منها ، لأنها أحجارٌ وليسَت آلهة ، وأنا أنصَحُكم فقط ، حتى لا يَغْضَبَ اللّه عليكم ، فَيُهلِكَكُم ويُعَذِّبَكم .

قالوا : يا هود ، هل تُهَدِّدُنا بالهلاك والعذاب ؟

فَمَن هو الذى يقدِرُ على قِتالِنا ، ونحـنُ قـومٌ أشِـدَّاء ، وليس هناك أحدٌ يَغْلِبُنا .

قال : يا قوم ، إنَّ اللّه الذى خلقكم هو أَشَدُّ منكم قوَّة ، فهو الذى أعطاكم هذه القوَّة ، وهو قادِرٌ على أن يأخذَها منكم ، ويُرسِلَ عليكم الهلاك والدمار .

قالوا : يا هود ، اذهبْ فقل لربِّك يُرسِلْ علينا هذا الهلاكَ الذى تُهَدِّدُنا به . وسنرى إن كان يقْدِرُ علينا . اذهبْ يا رجلُ اذْهبْ ، فنحنُ لا نُصَدِّقُ هذا الكلامَ الفارغ الذى تقوله . وإن كانت لديك مُعجِزَةٌ فأَظهِرْها لنا ، ونحن فى انتظارك يا أخانا !

٣

عرَف هودٌ أنَّ الكفارَ من قومِه لن يؤمنوا ؛ لأنَّ قلوبَهم أصبحت قاسية ، والنعمةَ التى هم فيها قد جَعَلَتْهم ينسوْن ربَّهم ، ويظنُّون أنهم أقوى من اللَّه ، وأنَّه لا يقدِرُ عليهم !

ودعا هودٌ ربَّه أن ينصره على قومِه ، لأنهم كفرُوا وضلُّوا .

عند ذلك حَبَس اللَّه المطرَ عن قومِ هود ، ومضَتْ مدَّةٌ طويلة لم تَنزِل فيها أمطار ، حتى جفَّ الزَّرعُ ومات ، ولم تجِد الأنعامُ والمواشى زرعًا تأكُلُه ، فَهزِلَت ونَقَصَ وزنُها .

وكان القومُ يَتلَهَّفُون على نزول المطر ، لأنَّ المياهَ القليلةَ التى فى العيونِ والآبارِ لا تكفى إلا للشرب ،

ولا يزيد منها شيءٌ لريِّ الأرضِ والأشجارِ والحدائقِ والحقول والمرَاعى ، فذهبوا إلى آلِهَتِهِم ، وصَلُّوا لها ، ودَعَوْا أن تُرسِلَ عليهم المطر بعد هذا الجفاف .

وكان هودٌ يقول لهم : يا قوم ، آمنوا حتى يرسلَ اللّه المطر ، ويُنجِّيكم من الضيق الذى أنتُم فيه . فيقولون له : لقد دعوْنا آلهَتنا ، وستُرسلُ لنا المطَر قريبا ، فاذهب عنا . وإذا كان إلَهُكَ الذى تقول عنه موجودا ، فليصنَعْ ما يريد !

٤

وفى يومٍ رأوا سحابةً سوْداءَ عظيمة ، مقبلةً فى السماء نحوَهم : ففرحوا وهَلَّلُوا ؛ وقالوا : هذه سَحابة مُمْطِرَة ألا تَروْنَها سوداءَ كثيفَة ، لقد استجابَتْ آلهتُنا لدعائِنا ، فأرسلتْ لنا هذهِ السحابةَ

العظيمة ، التى ستملأُ الوادى ماء ، وتُـروِى الحقـولَ والمراعِى ، يا فرْحتَنا ! يا فَرْحَتَنا !

وراحت جماعـةٌ تحرُثُ الأرض ، وتبـذُرُ الحبـوب ، فى انتظارِ المطرِ الغزير الذى سينزل فيُروِى الأرض ، ويُنْبِت الزرع .

وراحـت جماعـةٌ أخـرى تقـول لِهـود : أيـن إلَهُـكَ يـا هـود ؟ لقـد كنـتَ تقـول : ادعـوه ليُـنزلَ عليكـم المطرَ. فها هو ذا المطـرُ قـد أقبـلَ فـى هـذهِ السـحابةِ العظيمة ، وإلَهُكَ لم يصنَعْ شـيئا . بـل إن آلهتنـا هـى التى أرسلتْ لنا هذه السحابةَ المُمْطِرةَ التى تراها .

وراحـت جماعـةٌ ثالثةٌ ترقـص وتُغَنِّـى أمـامَ الآلهـةِ وتُصَفِّقُ وتصيح ...

وبينمـا القـومُ فـى فَرحَتِهـم ، هبَّـتْ ريـاح شـديدةٌ عاصِفة ، تُحَطِّمُ الأشجار ، وتُكَسِّرُ الأسوار ، وتُكْفِئُ

القدورَ والأوانى ، وتحمل الحصى والرمال ، فتضربُ بها وجوهَ الكفـار ، وتُعمِى عُيونَهـم ، وكـانت ريحًا بـاردةً تُيَبِّسُ الجلـود ، وتُجَمِّـد الأيـدى والأرجـل والآذانَ والأُنوف .

فصرخ الكفار ، وانكفَئُوا على وجوههـم ، ولكـن الريـحَ لم تَرْحَمْهُـم . فاستمرَّت تهُبُّ وتُدَوِّى سبْعَ ليالٍ وثمانية أيام . حتى دمَّرَت كـلَّ شىء ، وقتَلَت الناسَ والحيوان ، وأهلكَتِ الزَّرعَ والثِّمار ، وخَرَّبتْ هـذه الأراضـىَ العامِرة ، فلـم يَعُدْ فيهـا إلا جـذوعُ الأشـجارِ المهشـمة ، وبجانبهـا جـذوعُ الكفـارِ يابسـةٌ محطمة . إلا هودًا فقد نجَّاهُ اللَّه منها .

وكُلُّ شىءٍ قد انتهـى وزال ، ولم تبـق إلا البيـوتُ الصخريَّةُ قائِمةً تقول :

هنـا كـان يسكن رجـالُ عـاد ، أولئـكَ الضِّخـامُ

الشِّداد ، الذين بَنوا إرَمَ ذاتَ العِماد ، التى لم يُخْلَقْ مثلها فى البلاد ، وقد أُهلِكوا بريحٍ صرصرٍ عاتية ، سخَّرها عليهم سبْعَ ليالٍ وثمانيةَ أيامٍ حُسُوما ، فَتَرَى القَومَ فيها صَرْعَى ، كأنَّهم أعجازُ نخلٍ خاوية ، فهلْ تَرى لهم من باقِية ؟